أدب لا يكتبه العرب خوفا من القراء

الثقافة العربية تتلهف لإفشاء الأسرار ثم تنتقد أصحابها

يرسم المبدعون حدائق من البهجة والمتعة عبر كتاباتهم الروائية والقصصية، وقد يصنعون عوالم واسعة وسيرا مشوقة وحكايات مُتخيلة، تستمد بعض جوانبها من الواقع، يمدون خيوط استمتاع وتشويق بحبكات وموضوعات لافتة تجتذب عيون مُحبي القراءة شرقا وغربا، لكن تبقى سير الكتاب من أكثر الأعمال إثارة لفضول القراء، لكنها عربيا أدب منقوص وخائف.

مصطفى عبيد
كاتب مصري

الكثير من الكتاب يُقيمون جسورا من الألفة والصداقة الورقية والمودة مع قراء كثر لا يعرفونهم، متنوعي المآرب ومُختلفي الأذواق، ويتعايشون مع أبطالهم، ويفتشون بين ثنايا القصص عن لحظات بوح ذاتية يتعرفون منها على ملامح وسمات وصفات للكتاب أنفسهم.

يتمدد الفضول رويدا لدى جماهير القراء للتعرف على تجارب الكُتاب أنفسهم، ما شكل لغتهم، وعزّز مواهبهم، وفتح أمامهم نوافذ الإبداع، ما عانوه من أوجاع إنسانية، وما واجهوه من إحباطات في طريق الكتابة.

يتلهف القراء على أسرار وخبايا مَن يحبون. قصص عشقهم، ولحظات ضعفهم الإنساني، وتحولاتهم الفكرية والسياسية، وآراء الآخرين فيهم، وآراؤهم في معاصريهم من مبدعين ومثقفين وشخصيات عامة.

لذا أصبحت كل سيرة مدونة وكل كتاب مذكرات منشور لروائي أو قصاص أو شاعر مِحل اهتمام والتفات من جمهوره المُحب أو غير المحب على السواء.

لهفة القراء

رغم قلة سير الروائيين، وندرة مذكراتهم، إلا أنها تبقى بمثابة رمية حجر في بحيرة راكدة، فما أن تصدر سيرة لأحدهم تحمل بوحا صريحا حتى تمتد جلسات النميمة ويتجدد القيل والقال، ويغضب البعض، ويمتعض آخرون، وتعلو الأصوات المنكرة تحت لافتة رفض البوح وترك العظام الراقدة في سلام ترقد في سلام، ويتكرر مصطلح "تصفية الحسابات" باعتباره سيفا مُرهبا لباقي الأدباء من السير في الطريق ذاته.

لم يكن غريبا أن تُثير سيرة الروائي المصري المهاجر إلى أوروبا رؤوف مسعد، والصادرة قبل أسابيع عن دار النسيم بالقاهرة، تحت عنوان "لما البحر ينعس"، عواصف من الجدل، وتُنشئ محاورات ساخنة نظرا إلى ما تضمنته من وقائع ومواقف وأسرار تعلقت بكثير من المبدعين المعروفين.

تحكي سيرة مسعد، والتي أضاف لعنوانها عبارة جذابة هي "مقاطع من حياتي" بداياته الإبداعية، وكيف توهجت موهبته خلال فترة سجنه بتهمة الشيوعية، وتعرضه للفقر المدقع الذي عاشه، والإحباطات المتكررة في الساسة والشخصيات العامة، وتبدلات وتحولات المثقفين وعلاقاتهم مع السلطة، ليطرح آراء قاسية وصادمة في مبدعين كبار، مثل محمود أمين العالم، ويوسف إدريس، وصافيناز كاظم، وعبدالرحمن الأبنودي. وتحدث الرجل بصراحة تامة عندما يُشير إلى موقفه الديني وكيف تحول من ابن قسيس بروتستانتي إلى شخص لا ديني.

تثير سير المبدعين في العالم ضجيجا مبالغا، نظرا إلى صلة الارتباط الوثيقة القائمة بين هؤلاء المبدعين وقرائهم، ولاشك أن ذلك كان واضحا في سيرة الروائي الكولومبي غارسيا غابريال ماركيز، والمعنونة بـ"عشت لأروي" وتميزت بالصراحة الشديدة واللاخجل، مستندة إلى أسلوب سردي يتشابه كثيرا مع كتاباته الروائية.

يرى البعض أن فتح خزائن الأسرار للمبدع هو ما ينتظره جمهوره منه. ماذا فعل، وماذا فكر في فعله، وما خاف من فعله، وما خجل منه، وما أخطأ فيه، وما ندم عليه، وما أشعره بالاشمئزاز من نفسه. بمعنى آخر ينتظر القراء من المبدع أن يتعرى تماما أمامهم لأنهم يتصورون أن كونهم قراء له، فإن من حقهم عليه أن يرونه بلا أقنعة ولا مساحيق تجميل.

يقول الناشر المصري محمد هاشم، صاحب ومدير دار ميريت للنشر بالقاهرة، إن السير الذاتية الصادقة هي التي تحظى برضاء وإعجاب جمهور القراءة، بغض النظر عما يؤدي إليه ذلك الصدق من نتائج وجدل.

ويؤكد لـ"العرب" أن سيرة ماركيز قدمت إجابات شافية لكل شخص لديه سؤال، لأنها مغرقة في التفاصيل، ومكتوبة دون حرج أو خوف، وتعرضت لأمور عديدة قد يعتبرها البعض شخصية، فهي تناولت حكايات عديدة عن الجد والعمة والأم دون حرج، وهذا ما يعد نموذجا مثاليا لسير المبدعين.

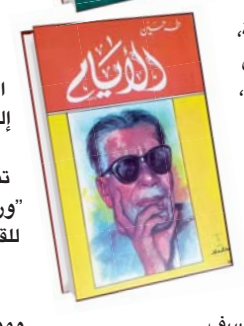

وقدم معظم الروائيين العالميين سيرا اتسمت جميعا بالصراحة والصدقية، لذا بدت سيرة الروائي اليوناني نيكوسكازانتزاكس التي حملت عنوان "تقرير إلى غريكو" ممتزجة بالذاتي إلى أقصى درجة وغارقة في الاعترافات والبوح الصادق الذي يُقدمه كرسالة إلى جده الأكبر غريكو.

وقدمت الروائية الصينية تنغ سنغ بي سيرتها بعنوان "ورقة الرياح القاسية" لتكشف للقراء بطريقة روائية حكايات حياتها، نشأتها، شبابها، ووقائع الثورة الصينية، وموقفها منها.

وتتنوع النماذج الأخرى لسير المبدعين الذين قلبوا العالم بكلماتهم مثل الشاعر التشيلي بابلو نيرودا وكتابه الشهير "أشهد أنني عشت"، أو الشاعر الداغستاني رسول حمزاتوف وسيرته المعروفة بـ"داغستان بلدي"، أو النمساوي شتيفانتسيفايغ في كتابه "عالم الأمس"، في تبويبها ولغتها وأسلوبها، لكنها تتفق جميعا في عنصر هام هو الصراحة الشديدة.

التحفظ عن الكتابة

إذا كان العالم العربي دخل سير الأدباء مبكرا منذ بدايات القرن الماضي، لنقرأ كتاب "الأيام" للأديب المصري طه حسين، و"أشلاء سيرة ذاتية" لأحمد حسن الزيات، وكتاب "حياتي" لأحمد أمين، إلا أنه كان من الواضح نزوع كثير من السير إلى التورية والتجمل والوقوف على مسافة ما من الحقيقة تحت باب الحفاظ على الخصوصية أو احترام التقاليد والأعراف المجتمعية السائدة.

ومع تطور الحركة الإبداعية، وزحف الحداثة، فإن الموجات التالية لسير الأدباء حتى الألفية الثالثة مثل "السيرة الطائرة" للشاعر والروائي الفلسطيني إبراهيم نصرالله، أو "أثقل من رضوى" للروائية المصرية رضوى عاشور، أو "يوما أو بعض يوم" للكاتب محمد سلماوي لم تحمل اعترافات أو مكاشفات تخص الذات.

ويمكن ملاحظة أن السير التي حوت اعترافات خاصة أو بوحا حقيقيا كانت نادرة، لكنها بقيت كعلامات فارقة في تاريخ الأدب الحديث بدءا من كتاب "سبعون" للكاتب اللبناني ميخائيل نعيمة، والصادر في ثلاثة أجزاء، وحتى مذكرات لويس عوض المعروفة بـ"أوراق العمر" وكتاب "النميمة" لسليمان فياض، و"ماذا علمتني الحياة؟" لجلال أمين.

يوضح ميخائيل نعيمة مثلا في سيرته اعتزازه بالبوح التام والاعترافات الكاملة فيعبر في مقدمته عن شعوره باللذة إذا تعرى من أسراره وأوزاره وأصبح بيتا من زجاج مكشوف كل ما فيه للعابرين.

وفي تصور الكاتب المصري أحمد الخميسي، فإن سير الروائيين والمبدعين العرب قليلة إلى حد ما وستظل قليلة لفترة طويلة رغم الأهمية الكبرى التي تمثلها.

ويقول في تصريحات خاصة لـ"العرب" إن فن السيرة بشكل عام يمثل لحظات بوح مثالية تُحلق بالسارد في سماوات بلا حدود، وتمنحه بحبوحة من القدرة على التعبير عن مكنون الذات.

ويرى أن قلة السير والمذكرات، وتحفظ معظمها في العالم العربي يرجعان إلى أن وحش الخوف يبتلع الكتابة قبل أن تظهر حروفها الأولى، فهناك خوف من المجتمع وتقاليده، وهناك خوف من جرح الآخر، وخوف من تدمير العلاقات الاجتماعية مع الوسط الثقافي والصحافي.

ويشير الخميسي إلى أن ابن أخت الأديب نجيب محفوظ أقام دعوى قضائية لمجرد أن محفوظ صرح يوما ما بأنه كانت له مكتبة في بيت أخته وفقدت، لذلك فالخوف يحطم الكتابة قبل أن تتبلور وتجد طريقها للسكن فوق صفحات الكتب.

ويقول الكاتب المصري يوسف القعيد لـ"العرب"، إن المجتمع العربي لا يرحب بمن يتسلل إليه من ثقب الباب، ويكتب دون إشارات مرور، فأدب البوح في بلادنا موصوم دوما بالفضائحية والخروج على قيم المجتمع، ويُنظر إليه نظرة استهجان، فالمجتمعات العربية تضع ألف حاجز وحاجز أمام أدب البوح والاعترافات، تارة بالتسفيه والاستهجان، وتارة أخرى بالتجاهل والنسيان في ما بعد.

> قلة السير والمذكرات وتحفظ معظمها في العالم العربي يرجعان إلى أن وحش الخوف يبتلع الكتابة

وشهدت السنوات الأخيرة اتساعا لتيارات السلفية في الشارع العربي، بما تحمله من رؤى انغلاقية، إلا أن يوسف القعيد يرى أنه حتى في حال عدم غلبة هذه التيارات فإن المجتمعات العربية نفسها بسمتها وخصوصيتها لا ترحب بأدب البوح.

مثل هذه القيود تدفع بعض الروائيين العرب إلى حيلة توزيع سيرهم الذاتية في ثنايا إبداعاتهم، فنجد مثلا حكايات لمثقفين معاصرين لنجيب محفوظ في بعض رواياته مثل "المرايا" و"قلب الليل" و"اللص والكلاب" وغيرها.

ويلفت الناقد خيري حسن، لـ"العرب" إلى أن القليل من الأدباء يتحملون جرأة القول والقدرة على الاعتراف والكشف عن الذات فيقدمون سيرهم، لكن الأغلبية منهم يكتبون سيرهم بشكل غير مباشر عبر الأدب نفسه، وتكاد تقرأ محيط كل أديب في رواياته، ويصل بك الأمر أحيانا لتخمين شخوص حقيقية تراها في المجتمع حولك.

وهناك لون آخر لسير الأدباء ظهر في الآونة الأخيرة، حيث يطرح فيها البعض تجاربهم الذاتية بطريقة مختلفة تُركز على تجاربهم الإبداعية وحدها دون التطرق إلى الشخصيات العامة، ومنها مثلا كتاب "ما وراء الكتابة" للروائي المصري إبراهيم عبدالمجيد، الذي قدم فيه حكايات رواياته، وأجواء ميلادها، وكيفية اختمار أفكارها في رأسه، ثُم انتقالها إلى الورق، وهو أسلوب جديد يحاول البوح بمقدار علاقة الكاتب مع النص وحده دون تداخل أو اشتباك مع الآخرين.

ويرى البعض من النقاد أن ذلك اللون يُشكل سُلما للأجيال الجديدة من المبدعين للاستفادة من تجارب الأدباء السابقة والبناء عليها في المستقبل، لكنه بالطبع لا يروي ظمأ الاعترافات الذاتية وكشف مكنونات معشر الكتاب.

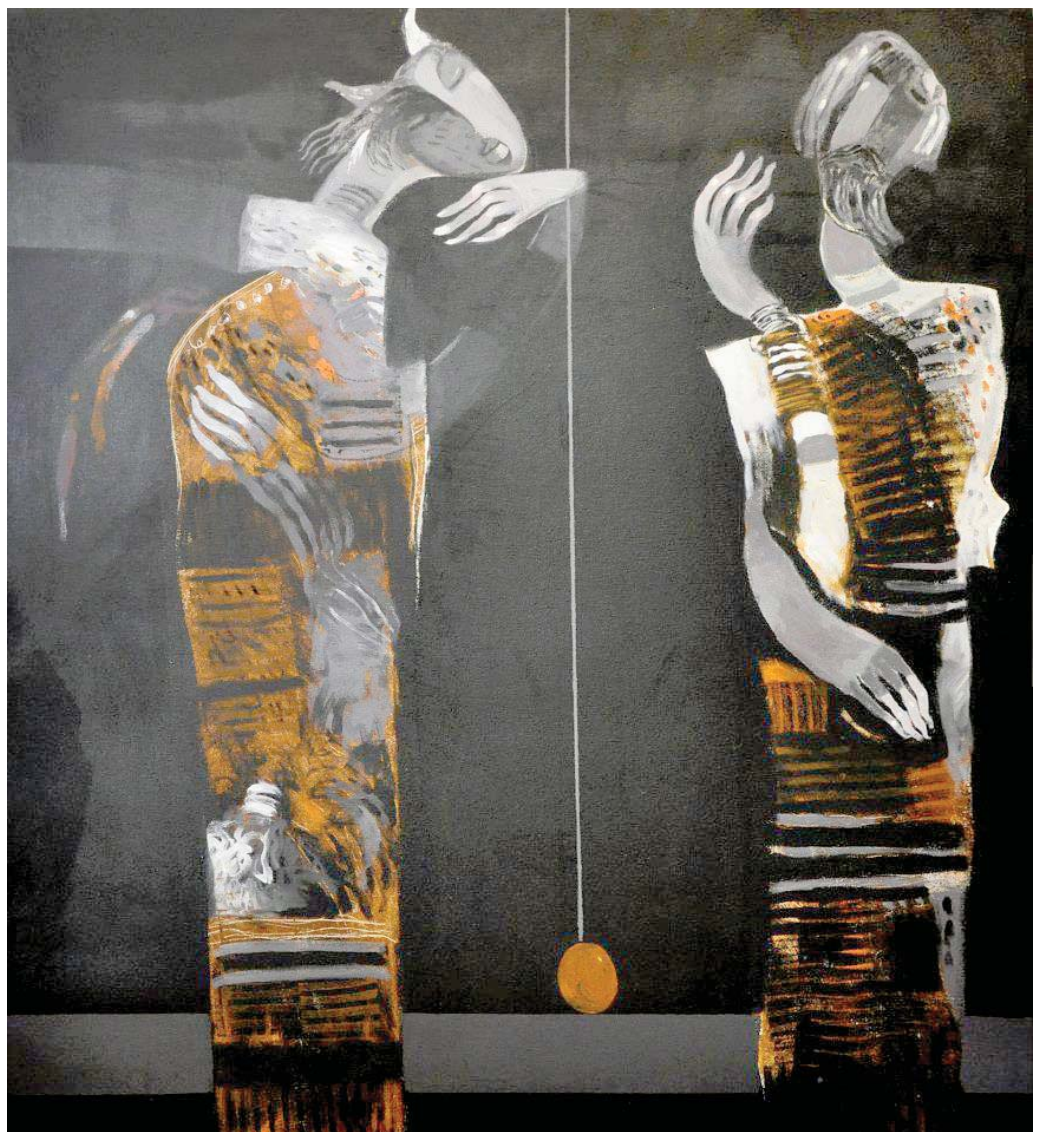

العرب يحبون الأسرار ويخافونها (لوحة للفنان أسعد فرزات)

مثقفون وكتاب عرب يقرعون «أجراس الوباء»

ميلانو (إيطاليا) – ينحو كتاب "أجراس الوباء – الأناركية الاصطناعية وإعادة تكوين العالم"، الذي بلور فكرته وأشرف عليه وقدم له الشاعر السوري نوري الجراح، بمشاركة عدد من الكتاب والمفكرين العرب والأوروبيين؛ إلى تطوير أسئلة وأفكار فرضها وضع إنساني كارثي، نجم عن انتشار وباء فتاك، تزامن ظهوره مع انهيار القيم الكبرى في عالم اليوم.

وهي الأسئلة التي تحاول الانطلاق من أرضية مشتركة، مولدة أفكارا تجرب أن تتجاوز حاجز النقد المتقوْقع على ذاته؛ بخلق حوار فكري/ أخلاقي عميق بين مثقفين يستطلعون ما ستؤول إليه هذه اللحظة الإنسانية الكئيبة، منتقدين الوضع الناجم عن السياسات النيوليبرالية والجشع الرأسمالي، وكذا أنظمة الدول الشمولية والطغيان المشرقي والآسيوي.

الكتاب هو محاولة، لن تتوقف عند هذا الحد، لكونها تتضمن دعوة إلى ابتكار صيغ جديدة ومعاصرة لتواصل فكري متعدد المشارب والمرجعيات، إيمانا بأن التغيير الحقيقي في المسار البشري، لا يأتي إلا من دعاة التغيير الإنسانيين في العالم. كما أن إصلاح العطب الذي وضع إنسان العصر في أضيق زاوية، لا يتحقق إلا بتحويل المأساة إلى مجال حيوي وفعال لتفكير تعددي يعبر عن حيوية النخب المثقفة ومسؤولياتها بإزاء مجتمعاتها، والكتاب يطرح عليها سؤال: كيف يفكر المفكرون بينما البشرية حبيسة البيوت، ووراء أقنعة كوفيد؟

أخيرا، جاء الكتاب في 288 صفحة من القطع الوسط.

وفي استهلال الكتاب لفت نوري الجراح إلى أن فكرة إصدار هذا الكتاب تبلورت في خضم نقاش مركز مع عدد من الصديقات والأصدقاء الذين شارك بعضهم أولا في كتابة مقالات لمجلة "الجديد" الثقافية اللندنية في إطار ملف، استقطب عددا من الكاتبات والكتاب ممن جرت دعوتهم لتدوين انطباعات وتأملات وأفكار حول موضوع العزل الصحي، تحت عنوان "ماذا تفعل في البيت؟". كان ذلك مع بدايات انتشار الفايروس، ولم يكن الانتباه إلى حجم الفاجعة قد ولد بعد.

وبينما كانت تلك الكتابات قيْد النشر في المجلة تحت عنوان "الكوكب الأسير– تأملات وأفكار ويوميات المعتزلين في البيت"، كان الوباء ينتشر بسرعة غير مسبوقة في كل ناحية من أنحاء الكوكب، ويحصد بمنْجله الأرواح. وقد بدأت معالم الفاجعة الكونية تظهر، وراح القلق ينمو في الوجوه والنظرات. قبل أن يختفي الجميع في البيوت، ولم نعد نظهر لبعضنا البعض إلا في صور تتحرك على شاشات الكومبيوتر وأجهزة الموبايل.

ويضيف "ظروف الإقفال، والعزْل، والاضطراب في يوميات وبرامج ومواعيد الكاتبات والكتاب، الذي رافق التسارع في انتشار الوباء. جعل من الصعوبة بمكان التحضير لإنجاز الكتاب بالصورة التي تخيلته عليها منذ البداية. أي بمشاركة أوروبية واسعة. كاتبان تركي وإيطالي فقط تمكنا من تلبية الدعوة في الموعد المحدد لها، وهو ما حتم علي الدفْع بالكتاب في صيغته الراهنة، ومواصلة العمل على نسخة ثانية لطبعة ثانية من الكتاب. لاسيما أن عددا من الكتاب الأوروبيين بدا متحمسا للفكرة، ولم تسعفْه ظروفه للمشاركة في هذه الطبعة".

يضم هذا الكتاب، كما سيلاحظ القراء الأعزاء، مروحة من الأفكار كما نجد في آخره دراسة الشاعر والأكاديمي الإيطالي إيمانويل بوتاتسي غريفوني، لكونها توسعت في قراءة الظاهرة والتشاكل معها انطلاقا من جملة حفريات ومقارنات وقراءات ابستمولوجية موازية، قصدت أن توسع من أفق الدلالة لما طابق أو نجم عن تصورات مسبقة لتاريخية فكرة الوباء.

ونذكر أن كتاب "أجراس الوباء – الأناركية الاصطناعية وإعادة تكوين العالم"، صدر حديثا عن منشورات المتوسط –إيطاليا، بالتعاون مع منصة الكتب العربية الإلكترونية "أبجد"، وسيتاح مجانا للقراءة على منصة أبجد.

وساهم في إنجاز هذا الكتاب مجموعة من المؤلفين العرب والأوروبيين، من سوريا، فلسطين، تونس، العراق، مصر، الجزائر، المغرب، تركيا، إيطاليا. وهم، حسب ورود مساهماتهم في الكتاب: نوري الجراح، أحمد برقاوي، أبوبكر العيادي، لطيفة الدليمي، إبراهيم الجبين، خلدون الشمعة، فخري صالح، نادية هناوي، محمد آيت ميهوب، مفيد نجم، نهلة راحيل، يوسف وقاص، محمد صابر عبيد، ممدوح فراج النابي، هيثم حسين، حميد زناز، المتوكل طه، فارس الذهبي، مخلص الصغير، حاتم الصكر، أزراج عمر، مصطفى الحداد، بلال سامبور، إيمانويل بوتاتسي غريفوني، عبدالرحمن بسيسو.

دار الشعر بمراكش تقدم «قصائد من الحجر»

مراكش (المغرب) – تواصل دار الشعر بمراكش تجسير التباعد الاجتماعي، بين الشعراء والنقاد والمتلقي شعريا، عبر إطلاق العديد من الفقرات الشعرية والندوات النقدية، من بوابة منصاتها التفاعلية، لتواصل من خلال هذه البرمجة، فتح منافذ جديدة لتداول الشعر بين جمهوره.

واحتراما للتدابير والظرفية الاستثنائية التي يعيشها العالم اليوم، اختارت الدار أن تكون لقاءات الشعر تنتظم وفق تفاعل إيجابي وفعلي داخل منصات تواصلية رقمية، والتي أنشئت مباشرة بعد إعلان الحجر الصحي، استفادة مما تفتحها الوسائط التكنولوجية اليوم والفضاء الرقمي.

ومن الأنشطة التي تقدمها الدار فقرة "قصائد من الحجر"، وهي فقرة جديدة تحاول من خلالها الدار، الاقتراب من عوالم الشعراء خلال مرحلة الحجر الصحي.

إعلاميون ونقاد يلتقون في هذه الفقرة، ليشاركوا المتلقي بعضا من قصائد عزلتهم، ويفتحوا لها جسور العبور لذائقة القراء. إذ يقدم الشعراء قصائد خاصة من لحظات استثنائية، تفتح أفق الشاعر على عزلة مغايرة، لم يتعود تفاصيلها بالشكل الذي عايشتها الإنسانية جمعاء.

وهكذا يلتقي كل من الشاعرة والإعلامية حفيظة الفارسي والشاعر والإعلامي مصطفى غلمان والناقد والشاعر عبداللطيف الوراري، في لقاء شعري حواري، وذلك مساء الثلاثاء 23 يونيو الجاري، في أمسية تزاوج قصائدها بين الذات وشجونها، بين اللحظة بكل جسارتها وقوة الأمل التي تفتحها روح الشاعر.

> هذه الفقرة أقرب إلى «مونولوغ» الشاعر الداخلي من خلال قصائد تزاوج بين الذاتية واللحظة الراهنة

وفقرة "قصائد من الحجر"، فقرة جديدة تضاف لسلسلة الفقرات، التي أطلقتها دار الشعر بمراكش في موسمها الثالث، ضمن استراتيجية محددة المعالم تتجه للشعر وللشاعر ووظيفتهما السوسيو-ثقافية داخل المنظومة المجتمعية اليوم. وهذه الفقرة هي أقرب إلى "مونولوغ" الشاعر الداخلي يقترحه علينا، وسيتم بثها على قناة دار الشعر بمراكش (يوتوب) وفي صفحتها على الفيسبوك.